دراسات فى الفن :

اليد فاللسان فالقلب

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— أأنت الذى قطعت أوتار هذا العود هكذا ؟

— نعم

— وتقول بكل وقاحة « نعم » ؟! لم أعد أطيق معك صبراً !

— وبهذا أنذر الخضر موسى . ومع هذا فقد أصر موسى على صحبته ...

— الخضر وموسى ؟ إذن فلك حكمة فى هذا الخبل يا سيدى الخضر الثانى ...

— من غير شك . فالمحروس أخوك الصغير خلقه الله مشيداً بالغريزة والسليقة ، وقد كان هنا طول الأمس ، فلو أنه عثر على العود مشدود الأوتار لأبى إلا أن يطربنا ويشنف أسماعنا بنشيد « المعزة والضفدعة » وأغنية « الجحش النجيب » ، وغير ذلك من محفوظاته الرائعة ... فقطعت أوتار العود ، ونجونا بذلك من الكرب

— أما كنت تستطيع أن تخفيه ؟

— كان يستطيع أن يجده !

— فإذا وجده أما كنت تستطيع أن تنهاه عن العزف ؟

— بل كنت أستطيع أيضاً أن أدعه يعزف فلا أمنعه ، ولا أنهاه ، وإنما أدعو الله فى قرارة نفسى أن تنقلب أوتار العود ألغاماً فما يمسها حتى تنفجر فى وجهه فنرتاح ويرتاح ...

— يا حفيظ ! ولماذا لم تفعل هذا يا سيدى الخضر فكنت ترينا كرامة من كراماتك ؟

— لا يفعل هذا إلا من كان إيمانهم أضعف الإيمان

— الكرامات لا يفعلها إلا ضعفاء الإيمان ؟ ما هـذا ؟ إنما الكرامات للأولياء ..

— الكرامات للأولياء ، وما أكرمه على الله عبده الذى يلهمه الصواب ويوفقه إلى فعله بيده ... أتظنين أن هذا شىء يسير؟ هذه هى الكرامات ، وأولياء الله هم الذين يفعلون الصواب ، ويقيمون الحق بأيديهم ... والحق من الله ...

— كنت أحسب للأولياء آيات

— إن لهم آيات . بل إن للذين أقل منهم آيات أيضاً ... بل إن فى كل الذى ترين وتسمعين من هذا الوجود آيات ...

— ما هذا التناقض ؟ تنكر عليهم الكرامات ، وتشهد لهم بالآيات ، بل تمضى فتشهد لمن هم دونهم بها . . . ثم تذوب آخر الأمر فى هـذا الوجود الذى لا يمكن أن تحصره فتقول إنه كله آيات فى آيات ، فما الذى تحب أن أفهمه من هذا كله ؟

— إذا استطعت فافهميه كله . ولـكى تفهميه كله اذكرى الحديث الشريف من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان . واذكرى إلى جانب هذا الحديث قصة الخضر وموسى ، واذكرى مع هذا وذاك أن القرآن يروى عن حوار دار بين الكفار وبين النبى (ص) طلب فيه الكفار منه آيات ومعجزات فأوحى إليه الحق الجبار أن يقول لهم إن الوجود ملؤه الآيات والمعجزات. واعذرينى إذا كنت لا أحفظ نصوص الآيات .فقد استعصى علىّ الحفظ بفضل الطرق التى كانوا يحفّظوننا بها فى المدارس ...

— إنى أذكر هذه الآيات ولـكنى مع هذا لا أستطيع أن أخلص من جمعها إلى الحديث الذى ذكرته ، وإلى قصة الخضر بشىء مما تريدنى أن أخلص به ...

— هذه هى عادتك ... فلو كان ما نناقشه حسبة فستان وروائح ومساحيق لخلصت منها كالجن بالذى تريدين ... وأكثرا لا بأس فلنبدأ معاً ... أنت تعلمين أن كل ما فى هذا الوجود يتبع فى حياته قانوناً خاصاً به . وأنه لو حاد عن هذا القانون اختل واضطرب وفسد وقد يفقد الحياة . وأنت تعلمين إلى جانب هذا

أن كل القوانين التي تخضع لها كل الخلائق لها هي أيضاً قانون تخضع له هو قانون التطور والارتقاء الناهض إلى الكمال والموصل إلى الله واسمه الآخر ، تباركت أسماؤه . والخلائق متنوعة : منها ما يبدو لنا بإدراك ، ومنها ما لا يبدو له إدراك ، ومن الخلائق التي لها إدراك الإنسان ، وله إلى جانب الإدراك أو بهذا الإدراك إحساس وإرادة وعقل ، ثم إن له آخر الأمر قدرة على الإنتاج . وحياة الموجودات في مجموعها حين تنزع إلى الارتقاء والكمال لا تزحف بالتساوي ولا تتماسك في صف واحد ، والذي صنع بها هذا هو تشابك القوانين المؤثرة فيها وتعقدها وتكاثر الظروف الفعالة فيها وتباين أصولها واتجاهاتها ، وهذا التشابك وهذا التعقد وهذا التكاثر وهذا التباين ... كل هذه حين تتفاعل تفلي بالوجود غلياناً ، وفي هذا الغليان تتناثر بعض الموجودات فتخرج عن محيط أخواتها متطايرة متطيرة ، فأقوى ما في الموجودات هو الذي يستطيع أن يرد هذه الشاذة إلى مرجل الحياة بالدفع أو بالجذب ، وأقل قوة من هذا هو الذي يدعوها بالكلام عسى أن تقتنع وتعود إذا كانت مما يفهم الكلام ... والأقل قوة من هذين هو الذي ينظر إلى هذه الشاذة نظرة العارف بمروقها والآسف لهذا المروق والراغب في عودتها ، والعاجز عن إعادتها بالفعل أو القول. وهذا الذي وصفه النبي (ص) بأنه أضعف الإيمان، وليس الإيمان - كما لعله وضح - إلا الخضوع بالرضى لقوانين الحياة الساعية إلى الله ، ومن أقوى هذا الخضوع ما لم يشبه التردد وما صاحبه الإدراك ، كخضوع الخضر، ومن أضعفه الخضوع الذي لا إدراك فيه وهو خضوع الجماد والتراب ، وبين هذا وذاك درجات للايمان — والآيات ... ؟

— الآيات هي البراعة في هذا الإيمان ... إن في تتابع الليل والنهار آية ، لأن هذا التتابع بارع ، فهو ماض منذ كان إلى ما شاء الله لم يضطرب يوماً ولم يتأخر يوماً ، ولم يحدث أن تعاقب نهاران أو تلاحقت ثلاث ليال من غير أن يتوسطها نهاران

— في القطب يطول النهار شهوراً ...

— نحن نتحدث في التتابع لا في الطول والقصر فلهذين قانون آخر هو أيضاً آية لأنه أيضاً بارع

— طيب ...

— وكما أن للشمس والقمر براعة في إيمانهما تحتم أن يكون للناس براعة في إيمانهم ما دام الناس هم أشرف المخلوقات . وقد حدث هذا . فإن من الناس من هم بارعون في إيمانهم براعة هي آية ... فالخضر الذي ثقب سفينة الفقراء لينقذها من اغتصاب الحاكم الطاغية الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً إذا أعجبته ، ولا تعجبه المثقوبة ، كان في عمله هذا من أولياء الله ، أي من ملازمي الحق ، أي من الناس البارعين في خضوعهم لقوانين الحياة الصحيحة التي كان جديراً بالأفراد جميعاً أن يتبعوها فلا يعتدي منهم إنسان على ملك إنسان ، أو على جهد الإنسان ، والخضر — فيما يروي كتاب الله — كانت له أفعال كثيرة كهذه ، وعلل بعضها لموسى حين ألح في سؤاله إياه عنها ، وهذا التعليل يدل على أنه كان يستطيع التمييز بين الخلائق والحوادث المنتظمة في النهج الصحيح للحياة — أو بعض ذلك — وبين الخلائق والحوادث الأخرى التي تشذ عن هذا النهج الصحيح — أو بعض ذلك — وبراعة الإيمان في الخضر ليست هي مجرد الإحساس بهذا وإدراكه ، وإنما براعة إيمانه في أنه رد الحق إلى نصابه ... وهذا فعلاً هو الأمر الجلل الذي لا يستطيعه كل إنسان ... فنحن في كل يوم نرى عيوباً وشذوذاً عن الحق يصاب بها الناس وتصاب بها الأشياء ، ولكن أكثرنا يتشاغل عنها بشئونه هو كأن شئونه لا تتصل بشئون الكون . وقليلون جداً من الناس هم الذين يلفتون الناس بالكلام أو بوسائل أخرى من وسائل التنبيه تشبه الكلام إلى هذه العيوب ويطلبون منهم أن يصلحوها ، وهؤلاء هم الفنانون فهم أيضاً من ملازمي الحق أي من أولياء الله ، ولكنهم ليسوا كالخضر إيماناً ولو كانوا مثله لتحولت فنونهم هذه إلى أفعال يؤدونها بأيديهم ؛ فيقيمون بها الحق ويقومون بها المعوج بدلاً من الكلام وما يشبه الكلام ، ولكنهم على أي حال أقوى إيماناً ممن لا يفعلون ولا يقولون وإنما ينظرون ويدركون ويأسفون ويعجزون ... وحتى هؤلاء أصلح حالاً ممن ينظرون فلا يدركون ، ولا يأسفون ولا يحزنون !... وما أسعد الجمهور من الناس الذي يتولى أمره نفر من هؤلاء المؤمنين ، أولئك الذين يقومون العوج بأيديهم ...

— وما حال الجمهور الذي يتولى أمره الفنانون ؟

— الفنانون فيهم عيب ، وهو أنهم يقولون ما لا يفعلون ... وقد وصف القرآن الشعراء بهذا ...

— هذا صحيح ، ولكن لماذا ؟

— ألم نقل إن درجات الإيمان تختلف في الخلائق ، وأن اختلافها يظهر في مدى خضوعها لقوانين الحياة المرتقية إلى الكمال بتظهر القوة على رد غيرها إلى مرجل الحق بالدفع أو الجذب ، ثم بعد ذلك

بالنداء أو الكلام ثم بعد ذلك بالأسف ... إلى آخر هذا الذى قلناه

— هيه ...

— الفنانون إيمانهم من الدرجة الثانية ومظهره أنهم يقولون، أو ينتجون من الفنون ما يشبه القول ، وتنظرين بعد ذلك إلى آثارهم فترين فيها ما قد يتناقض مع أقوالهم ...

— أو لا يستطيعون أن يصلحوا من أنفسهم ؟

— يستطيعون ... فالله لا يمنع الرقى عمن أراده ، وقد علمنا فى القرآن وفى الإنجيل وفى التوراة أن نناديه وأن نطلب منه الهداية إلى الطريق المستقيم ، وليس هذا الذى علمنا إياه عبثاً ، وهو لم يقل لنا : « أدعونى أستجب لكم » ، وفى نفسه ألا يستجيب . . . إنما هو الرحمن يريد أن يستجيب ، ويطلب منا أن ندعوه ليستجيب ... ففى يد كل إنسان إذن أن يطالب من الله ما يريد على أن يكون الذى يريده شيئاً مما يعطيه الله الذى هو الحق والذى هو الرحمن والذى هو العادل ، والذى هو الهادى .. فالهداية إذن بابها مفتوح ... إنما علينا أن نطلبها ...

— علمنى كيف أطلبها لعل الله يهدينى فأكون من أولياء الله الصالحين ...

— أظن ذلك يكون بأن تمدى لها نفسك أولاً ... أنت تريدين أن تهتدى للحق ، فهدى نفسك للحق ... ثم اعرفى الحق ثم ابذريه فى نفسك ، ثم تعهديه بالحفظ والصون ، ثم غذيه واسقيه حقاً وحقاً ... عندئذ لا بد أن يثمر الحق فى نفسه حقاً هو أزهى الحق وأزكى الحق ... وسترين نفسك بعد ذلك ، تقولين الحق كما يفعل الفنانون ، ثم إذا رضى الله عنك رأيت نفسك تفعلين الحق بيدك كما يفعله أولياء الله الصالحون رضى الله عنهم ... أظن أن هذا هو الطريق ... بل إنه الطريق

— فلماذا لا يمضى الفنانون فى طريقهم هذا إلى نهايته ؟ ما داموا يستطيعون ؟

— لعل إعجابهم ببراعتهم فى إيمانهم يستهويهم .

— هذا الإيمان الشفوى الذى لا غناء فيه ، والذى لمنهم القرآن من أجله ...

— ليس إيمان الفنانين شفوياً يا هذه ، وإن القرآن لم يلمنهم يا تلك . . . بل إن القرآن وصفهم بأنهم يقولون ما لا يفعلون وهذا حق لأنهم هكذا ، وقال عنهم القرآن إنهم يتبعهم الغاوون وهم الذين يستهويهم كلام الشعراء وفنون غيرهم من الفنانين ، ويهيمون وراءهم فى دنيا كلها خيال تريد الكمال ولكنها لا تطلب الكمال إلا بالكلام، بينما الكلام لا يحقق هذا الكمال ، وإنما تحققه الأفعال ... فالفنانون هم حقاً لا ينتجون إصلاحاً ... ولكن دعوتهم إلى الإصلاح والكمال لا بد أن تصادف مؤمناً ممن يستطيعون أن يفعلوا بأيديهم فيحقق بهذا الإيمان الذى يستقيه منهم وبإيمانه الذى يهديه إليه الله ... ذلك الكمال أو جانباً مما كانوا ينشدون ... وحين وصف القرآن الشعراء بهذا الوصف الذى لا شك أن فيه كثيراً من التعبير كان الإسلام فى حاجة إلى الذين يبذلون الأرواح والأجسام فى تقويمه وتثبيته ، ولم يكن فى حاجة إلى من يقول شيئاً ، لأن الله عندئذ كان هو الذى يقول ...

— إذن فليسوا الآن ضالين ...

— ولم يكونوا يوماً ضالين ما استوحوا الحق فنونهم ، وإنما كان على أنوارهم أن تسجد لنور الله حين تجلى الله بنوره على محمد سيد العالمين ...

— ولكن دفاعك هذا كله عنهم لا يزال عاجزاً عن رفع إيمانهم منزلة على الإيمان الشفوى كما أقول . . .

— أعوذ بالله منك ومن اللوغاريتمات . . . إن لإيمانهم هذا المظهر الشفوى الذى تقولين عنه لأن تعبيرهم عن هذا الإيمان يكون بالكلام أو ما يشبه الكلام ، ولكن إيمانهم نفسه ليس كلاماً ولا شيئاً يشبه الكلام . وإنما هو إحساس وفهم وإدراك وتمييز واهتداء إلى الحق . هم يشعرون بأنفسهم ، ويشعرون بما يحيط بهم ، ويشعرون بالحق فى بعض هذا ، وبالشذوذ عن الحق فى بعضه ، وهم يشعرون بأن الحق واتباعه خير من الشذوذ ، فيرجون أن يحدث هذا الحق ، ويتصورون أنه قد حدث فعله لأنهم يستطيعون بعقولهم أن يرتبوا النتائج على المقدمات ، ومتى اهتدوا إلى علاج للعيب الذى يرونه فإن أنفسهم تخيل إليهم أن هذا العلاج قد تم بالفعل وأن الخلائق قد صلحت بعد ذلك واتبعت قوانين الحياة الصحيحة ... وهم يصفون هذا كله بفنونهم : يصفون رجاءهم، ويصفون علاجهم، ويصفون آثار هذا العلاج ويصفون قبل هذا وذاك الأشياء التى يرونها على ما هى عليه بما فيها من خير وما فيها من شر ... ولو أنهم عدلوا عن هذا الوصف إلى الإصلاح باليد لما قلت عنهم إن إيمانهم شفوى، وإنما الذى يسحبك إلى هذه المغالطة هو المظهر الشفوى لإيمانهم . وحرام عليك هذه القسوة

— ولكن من الفنانين عابثين ، وإن منهم داعرين . . .

— ليس هؤلاء فنانين ، وإنما هم حيوانات يتفننون .

عزيز أحمد فهمى